الدين والحياة

للأستاذ حامد محمود الزفزى

هناك فى بلاد المدنية الحديثة تجد المرأه قد نالت حقوقها كإنسان شريك لآدم لتعبر عن احتياجاتها الذاتية والاجتماعية والإنسانية ، فإذا مازرت مدينة لندن مثلا وتعرفت على سير الحياة فبالنسبة للمرأة تجد أن التعليم والثقافة ، والتوجيه والسياسة ، والأدب والفن وكل أوجه النشاط الحيوى فى حقل الحياة العامة تعالجة المرأة فى حزم وثقة . وبهذه المشاركة من جانبها أسهمت بقسط كبير فى المدنية والحضارة المعاصرة ودون ريب كان تخلفها وجذب الرجل لها داخل البيت وإهمال قواها التعبيرية وصمتها خلف الأبواب والرق والحجاب . بهذا الضرب الجهول فى معاملة المرأة الشرقية سجنت قواها . وخارت مواهبها ، وخمدت جذوة الإسهام الحوائى فى البناء وحل التأخر ونمى الجهل . واستشرى الفساد . ولعل ذلك يرجع إلى المفهومات الدينية العفنة التى غبرتها أتربة القرون وسودتها ليالى الأحقاب المعتمة ونحن فى حاجة إلى إنهاضها من كبوتها لتقف على قدميها وتتساوى مع أختها الأوربية حتى تسير القافلة ونلحق بركب المدنية، على ألا تأخذنى بأحاديث الكتب العتيقة البالية الأفكار فتلك بضاعة الفوكى أو المتخلفين أو على الأقل بضاعة كاسدة لا سوق لها .

لا سيما ونحن هنا فى جمهوريتنا الفتية نحضر لقيام دستور عربى جديد يجمع القوى ويعبر عن مكان وجودها ويوجهها لبناء أمة قادت الشعوب ووجهت الإنسانية وأمسكت بزمام الفكر البشرى أحقابا مشرفة ودفعت بالعقل العملى فضلا عن النظرى إلى الأمام خطوات وخطوات .

هذه الأمة التى قامت بخير دور وأعظم بطولة على مسرح الحياة فى تاريخ الإنسان . وأمتنا العربية تريد الآن أن تجمع العناصر والقوى والمواهب والقدرات وتضعها فى إطار تندفع من خلاله لتحقق وجودها وحقيقتها الصاعدة ورغبتها السلمية ورفاهية الإنسان.

وللمرأة فى هذا الدستور دور كبير . . . فعسى أن تحظى بنظرة قويمة حتى لا تنفلت أو تتأرجح فى الهواء . ثم . وأخذ صاحبى يستطرد قائلا . ثم إن المرأة هنا فى الشرق وفى إفريقية قد بدأت تحس بمسئولياتها ولا سيما تجاه الأخطار الشريرة . فكافحت الاستعمار بكل قواها وهذه جميلة بوحريد فى الجزائر المناضلة ، وفى كل مناسبة لتحقيق الحرية والسلام نرى تحركات جديدة لها ، وليس بغائب أو بعيد مؤتمر المرأة الإفريقية الذى عقد بالقاهرة فى الشهر الماضى . من كل ذلك وغيره يمكن أن نثق فى نشاط المرأة ونتائج توجيه قواها فنعطيها حقوقها الفكرية والسياسية والاجتماعية حتى تقف على قدميها وتسهم فى حركة البناء العربى الصاعد .

قلت نعم يا صديقى .

القرآن الكريم الذى هو رحمة وشفاء وخير ما يرجى من التنظيمات ، وهو الإطار الذى انطلقت من خلاله الأمة الأمية من جوف الصحراء القاحلة وغزت الممالك الكبرى وحطمت الأنانية والاستعمار الفارسى والرومانى واكتسحت الشرور والتأخر وزرعت الخير والإنطلاق ، وقادت الجموع إلى الأخاء والحرية ، حرية الرأى والاعتقاد فى إخاء إنسانى نبيل وزمالة وجودية شريفة وقدست المساواة والعدل ، هذه التعاليم وتلك التنظيمات هى التى خلقت من هذه الجماعة الصغيرة دعاة وقادة ومفكرين وساسة وعلماء وفنانين ومدنية وحضارة ودفعت بالبشرية والتاريخ إلى آفاق جديدة مشرقة ما زالت الإنسانية تتحسس جوانبها .

ومن الأسباب الحيوية فى بناء مدينة الإسلام أن دستورها (القرآن العظيم) كان يعبىء القوى والجهود ويكشف عن الكوامن والنوازع وما هو خير منها يدفع به إلى الأمام فى توازن ولأهداف بين الاحتياجات الذاتية والآداب الاجتماعية والغايات الإنسانية والمطالب الكونية . عادة التوجيه والدفع القرآنى للقوى والقدر والطاقات البشرية .

وطبيعة النفس الإنسانية فى بدء العهود الأولى للوجود وحتى إلى أن تنتهى الأنفاس . غريزة الإنسان التساؤل الدائم عن كل ما يرى من حوله وما يجرى فى خياله وما يجول بخاطره ، وقد انبعث هذا الاتجاه للمعرفة من التركيب العجيب . (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وذلك لسد ما يحتاجه ولتلبية ما يرغبه ومن هنا كان السير فى طلب المعرفة والبحث والدرس فرضاً طلبه الدين وما ذلك الفرض

إلا توجيه حتمى تقضى ضرورة العمران البيولوجى والروحى والكونى بعمله وإتيانه، وهكذا تسير قاعدة الفرائض فى الدين . . بهذا الاتجاه المدفوع بالفريضة حدد رسول الإسلام أن الثقافة وتنمية الفكر والإبداع فى كل مجالات العقل والوجدان . كل هذا النشاط الذى هو لحساب الفرد والمجتمع والعمران والوجود ليس من الضحالة والضعف وليس من الهوان وعدم الحاجة إليه بحيث يكون قاصراً على الرجل . بل إن رسول الإسلام قد دفع هذا التوهم الواهى وقبر هذا الوهم الخوف وأمات عصبية الذكورة المستبدة التى ركب آدم بها رأسه واشتط فى معاملة أنثاه لهذا كله ولغيره دفعه الرسول عليه السلام بقوله . طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . فالجهود البناءة يجب ألا تكون قاصرة على آدم دون أنثاه . فهو إن غلبت عليه القوة وحدة العقل فهى صاحبة الوجدان وربة الفن . وإن هو أعطاها الفسحة للمشاركة ستعطيه قوة على قوته وستكون له الساعد المعوان والزميل المخلص .

كل ذلك يا صديقى فرض فى الإسلام ولا يصح أن يقتصر على ما ينال بالسهولة واليسر بل إنه فوق فرضيته حتم حتى ولو كان ببلاد غير بلاد الإسلام ولقد أشار إلى ذلك رسول العلم عليه السلام بقوله أطلبوا العلم ولو بالصين .

وإذن فحقوق المرأة فى الثقافة والتعليم مقدسة بل وضرورة عمرانية ، والواقع أن هذا الاتجاه هو الذى دفع بحفنة صغيرة اندفعت من الصحراء تجوب العالم وجمعت شتاته التاريخى وبعثرته السياسية وقواه الفكرية ووجهت كل ذلك للبناء فقام الصرح وارتفع البناء وازدهر العمران وارتقت الحضارة وقامت المدنية .

والعامل الهام فى ذلك كما أشرت هو تعبئة الجهود للذكر والأنثى فى حقل الفكر والثقافة . وما أعظم الإنصاف للمرأة وفى أنها جديرة بالبحث والدرس والعلم والفن والفكر والأدب ، وهل كان الصحابة رضى الله عنهم الذين عاشروا الرسول عليه السلام فى حله وترحاله وليله ونهاره بأقل فى وعيهم وحفظهم ومستوياتهم عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عندما قال الرسول عليه السلام خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ؟ استغفر الله فقد كان هناك ترجمان القرآن ابن عباس وعمر بن الخطاب وابنه وأنس و . . الخ هؤلاء الصفوة من القادة الأحرار والمفكرين والثقاة الأبرار . أعتقد أن ذلك كان إشارة إلى الثقة فى تربية المرأة تربية ثقافية وقيادية لأنها قائدة فى البيت وشريكة للرجل فى حقل الحياة .

والعيب الذى نخشاه حقيقة فى هذا الأمر هو المناهج التربوية والقيادة التدريسية والمناحى العلمية وعدم إرتكاز محور الأسرة على فلسفة الدين الخالصة من الشوائب والأوهام والتحريف والخرافات .

وضرورة وضعنا التاريخى الآن والنفسى والمكانى تدعونا إلى التكاتف والتساند ونبذ التعصب للألوان الثقافية والدور التعليمية والتمذهب المحرف . هذه الظاهرة التى تعبر عن الربط النفسى لنا بالسياسة العفنة التى بثها الاستعمار فى عهد الإقطاع والتأخر ولقد أعلنت الثورة العربية الكبرى غير مرة تصريحا وتلويحا أن التقارب والرجوع إلى إحياء المعانى العربية الهادفة والكشف عن حقائق الغرائز القيادية الصادقه فى التكوين السيكولوجى العربى هو الذى سيحدد معالم الطريق لقافلة القومية العربية فى ركب الحرية والسلام لنا وللعالم كله ولرفاهية البشر .

والحقيقة أن كل عربى ومسلم الآن مسئول عن تطوير نفسه ومفهوماته وعلى الأخص ما يتعلق بالدين فتلك المفهومات التى غيرتها عصور التأخر التركى للخلافة ولا سيما ما يتعلق بالمرأة ونحن بدورنا نأمل من لجنة التحضير للدستور العربى الجديد أن تضع هذا فى الاعتبار وترسم له الخطوط وتبين المعالم التى توصل إلى هذه الغاية .

ومن ثمة يا صديقى نكون قدعبأنا الجهود البشرية لخدمة البناء الصاعد والعمران المزدهر والمدنية المرتقبة .

والحضارة التى نأمل منها أن تقف حائلا بين الشرق الشيوعى الجاف الذى أهدر حقوق الفرد الطبيعية من ملكية وحرية الرأى وبين أمريكا والغرب الاستعمارى صاحب الأنانية الشريرة ، وهو الدور الذى يجب على المدنيات الدينية المتطورة أن تقوم به فى هذه الآونة الراهنة ، وهنا كان صاحبى قد أخذ بقاطعتى الحديث قائلا :

إذا كان الإسلام بهذا الأسلوب قد نظم الاستجابة المطلقة للمعرفة فى بنى الإنسان ولا سيما المرأة وأعطاها حقوقها فكيف تجمع ما تقول وبين الحجاب فى الإسلام ؟ وإلى اللقاء فى مقال قادم إن شاء الله .